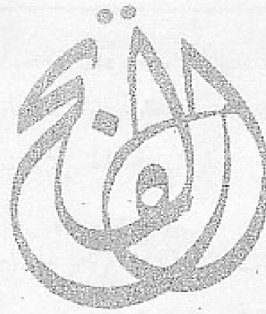
صاحب امتياز الصحيفة
محب الدين الخطيب

رئيس التحرير
عبد الباقي سرور نعيم
من علماء الأزهر



الاشتراكات
في المملكة المصرية
في الخارج

الاعلانات
يتفق عليها مع الادارة

صحيفة إسلامية علمية أخلاقية
تصدر يوم الخميس من كل أسبوع

(العدد — ٣) القاهرة: الخميس ٢٠ ذي الحجة سنة ١٣٤٤ — ٣٠ يونيه سنة ١٩٢٦ (السنة الأولى)

الحرية في الإسلام

بقلم العلامة الجليل الأستاذ السيد
محمد حبيب العبيدي
مفتي مقاطعة الموصل

المراد بالحرية عند الحقوقيين استعمال المرء قواه البدنية والعقلية والأدبية كما يشاء وتوسيعه نطاق ذلك الاطلاق بقدر ما يريد، بشرط أن لا يخلبحرية غيره بالمعنى نفسه. وهي على أقسام: شخصية، وفكرية، ومذهبية. ولكل من هذه الأقسام مظاهر ونتائج ومتممات. ومن ورائهن قيود تقتضيها المصلحة، أو تقضي بها نواميس الاجتماع.

ولا ريب ان قيود الحيثية والكرامة معتبرة منطقاً، وأن كل ذي مبدأ يجدر به أن يحتاط فيضرب نطاق الحجر على كل ما يمكن أن يضر بمبدئه تعزيزاً له وتثبيتاً.

من أجل ذلك كان الأجدر بصاحب الشريعة الإسلامية –من حيث أنها مبدأ له- أن يأبى من الحرية ثلثيها: الفكرية والمذهبية –ولا سيما الثانية- وأن يلهي الأمة عنهما بالحرية الشخصية خشية الشذوذ عن ربقة الجامعة فيما إذا ألقى الحبل على الغرب وأخذت الأفكار مداها.

ولكن ، بينما نرى طبيعة المسألة تقتضي العكس من ذلك المقتضى: فمنحت الأمة حريتها بكل معنى الحرية وأقسامها،وفي مقدمة ذلك الحرية الفكرية، والحرية الدينية، كأن لسان حالها يقول: «أليس القوة المدركة من الإنسان هي نور قلبه، وشعلة دماغه، وبها امتاز عن سائر الحيوان، فإذا طمس على ذاك النور، وأطفئت تلك الشعلة، أفلا يكون ذلك تنزيلاً للإنسانية عن أوج علاها إلى حضيض البهيمة؟ وهل للحِجر على حرية الأديان معنى غير الطمس على نور القلب، أو للحِجر على حرية الفكر مآل غير إطفاء الشعلة الجوالة في الدماغ؟ ألا وإن عمل السماء أرفع من أن يكون منحدر هبوط، ومستنزل مراتب.

الحرية الدينية في الإسلام وأهل الكتاب وعبدة الأصنام

إن الشريعة الإسلامية لم تقاوم من الأديان إلا ما قام على دعائم الوثنية، ولم ترفض من حرية الفكر إلا ما اصطبغ بلون العناد بعد ظهور الحجة واتضاح المحجة.

أما في غير الوثنية فقد تُركت للراهب صومعته، وللكاهن بيعته، وللحبر كنيسته، ثم صاحت في أبنائها على لسان القرآن: «ولا تجادِلوا أهلَ الكتابِ إلا بالتي هي أحسن».

فلم تكتفِ بمنح الخصم من أهل الكتاب حرية الفكر، حتى كللت ذلك بالتنبيه على آداب البحث فيما إذا ولجت الأمة بابه، فألزمتها أن ترعى الآداب فيه على أحسن وجه فوق ما يفرضه فن المناظرة، ثم زادت الأمر عناية بإيراده على صورة الحصر.

وأما الوثنيون فإن شريعة الإسلام –وإن ضنّت عليهم بالحرية الدينية- فقد عوضتهم عنها من الحرية الفكرية ما يقف المتأمل عنده حائراً منبهراً. فمن ذلك قوله تعالى: «ومن يدع مع ا إلهاً آخر لا برهان له به» حيث فسح مجال الجدل لإقامة البرهان على دعوى الوثنية أيضاً –فيما لو كان ثمة برهان- تأميناً لحرية الفكر، ورمزاً إلى أن الوثنية دعوى مجردة من الدليل، تبكيتاً للخصم وإفحاماً.

الحكمة من معارضة الوثنية

لقد كنتُ أستشكل في حكمة التشريع إباء الإسلام ذمة الوثني[١]، فأقول: أي مصلحة للعبد فيه؟ حتى هداني ا إلى الحكمة من هذا الحكم الشرعي، فعرفت أن في منع الوثنية تعظيماً لشأن الإنسانية، وإنقاذاً للإنسان من دركة لا تناسب مرتبة علاه.

ماذا يعبد الوثني؟

أيعبد إنساناً مثله؟ إنها لضِعةُ نفس، وخور عزيمة. ثم أين يبقى معنى المثلية؟

أم يعبد حيواناً دونه، يملك المفضول رق الأفضل؟ تلك أكبر عاراً، وأشد شناراً.

أم يدين لكوكب فاقد الحس لا يملك عقلاً ولا اختياراً.

أم ينحت صخرة بيده ثم يخر لها ساجداً، والإنسان فوق الجماد بمراتب؟

وكفاه أولى بالعبادة لو درى

هما نحتا هذي الصخور كما يدري

هناك العار كله والشنار أجمع!

إن في منع الوثنية تنبيهاً للإنسان على كنه منزلته في الكائنات، وإنقاذاً له من معتسف طريقة عمياء وحضيض جهالة جهلاء. وما نبغت أمة ظلت حجب الوثنية مسدولة على نوافذ أفكارها.

جدال النبي وخصمائه

أجل، إن الإسلام لم يعادِ من الأديان إلا ما قام على دعائم الوثنية. ولم يرفض من حرية الفكر إلا ما اصطبغ بلون العناد بعد وضوح الحجة. وفيما حفظ التاريخ عن حياة صاحب الشريعة الإسلامية أكبر دليل عملي على ذلك: فإنه –عليه أزكى السلام- مكث في مكة ثلاثة عشر عاماً وهو وخصماؤه من طرائق الجدل والبحث على طرفي نقيض: يعتمد على قوة الحق، ويعتمدون على حق القوة. يبطل آراءهم بالآيات البينات[٢]، ويحاولون خنق رأيه بالحِجر على حرية الفكر. وناهيك بعهد (الصحيفة)[٣] وما كانوا يقترفونه من ضروب الإيذاء، حتى إذا سطعت الحقيقة وظهر الحق على الباطل، وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم بغياً وعناداً، فتآمروا على قتله ليطفئوا نور الحق بالقضاء على منبثقه، اضطر بمقابلة العمل بمثله، فاستل الحسام الذي أوجدته قوة الحق، ولم يك قبلها لليتيم حسام، فشهره بوجه الباطل دفاعاً عن نفسه وحماية للدعوة ووقاية لحرية الرأي.

ولقد كان عمله هذا جهد المستطيع، وهل في طبيعة المسألة غير ما عمل من مستطاع، أم ماذا كان يصنع دونه؟ أيدعهم في ظلمات الباطل وقد ظهر له نور الحق؟ إنها لخيانة. أم يدع البطل يدوس الحق بأقدامه؟ إنها لموت ضمير وسقوط مروءة. أم يستسلم لشفار السيوف تأخذ منه مأخذها شهيد الحق وضحية الباطل؟ ذلك ما تنبو عنه مظان الطبع، وإنه لجبن صراح.

إلا أن الإنسان –من حيث أنه إنسان- لأجل من أن يرضى لنفسه مثل هاتيك الوصمات، وإن ابن هاشم صفوة الأكوان وأجلّ بني الإنسان.

فليخفف من غلوائهم الذين يتشددون بما يتشددون به في شأن الغزوات النبوية اتهاماً للدين الحنيف بما هو منه براء، ليشوشوا على الأفكار ويعبثوا بعقول البسطاء، ضلالاً منهم وإضلالاً.

الجزائر والأحكام الإسلامية

قبل الاستيلاء الفرنسوي

لم يكن في الجزائر في عصور تاريخها القديم درجة في المدنية، ولا نظام للحكم، ولا تاريخ معروف.

ولما عدت عليهم الأمم القوية المعروفة في التاريخ –من قرطاجنيين ورومانيين وفانداليين وبيزانطيين- حكمتها بأحكامها، وأجرت عليهم قوانينها، مع امتياز تلك الأمم الحاكمة وترفعها، مما أدى إلى عدم امتزاج المحكومين بها ، وعدم خضوع قلوبهم لأحكامها التي لم تكن –في الأكثر- ملائمة لها ولا منطبقة عليها، لأنها وضعت وضعاً خاصاً بأمم أخرى. وإن محاولة تطبيق قانون أمة على أمة كمحاولة مسخ أمة إلى أمة، وكلاهما محال في ناموس الطبيعة وقانون الاجتماع.

لذلك بقيت تلك الأحكام –التي لم تكن بإرادة الأمة، ولم تكن ممثلة لنفسيتها- غير نافذة تمام النفوذ، ولا واصلة إلى جميع الطبقات في داخلية الوطن.

بقيت الجزائر على هذه الحالة عدة قرون، حتى جاء الفتح الإسلامي. فلما فتحها العرب في النصف الأول من القرن الأول الهجري، ونشروا على ربوعها تحكم الإسلام الذي لا يجعل لعربي على أعجمي ولا لأعجمي على عربي فضلاً إلا بتقوى ا ، والذي لا يحارب من عادات الأمم إلا ما فيه ظلم أو فساد يخلاّن بالعدالة والآداب.

لما جاء هذا الفتح دخلت الأمة الجزائرية في الإسلام أفواجاً، وامتزج العنصر الأصلي القديم بالعنصر الفاتح الجديد امتزاجاً، حتى كانت منهما أمة واحدة هي التي نسميها «الأمة الجزائرية» اليوم.

---

[١] على أن المسألة خلافية بين علماء التشريع من المسلمين

[٢] لقد أوضحنا هذه القضية في كتابنا (حبل الاعتصام) بما يشفي الغليل، فليراجعه من يريد التفصيل

[٣] هو عهد تعاهدت عليه قريش ودونته في صحيفة حفظت في جوف الكعبة بأن يقاطعوا النبي صلى الله عليه وسلم ومن يناصره من بني هاشم وبني المطلب. وقصتها مشهورة في التاريخ

دانت الجزائر بالإسلام في زمن الفتح، وتلقت أحكامه بالقبول، وكان الغالب عليها – كالشمال الإفريقي كله- اتباع السنن والآثار في استنباط الأحكام بدون اعتزاء ولا استناد إلى مذهب معين، حتى انتشر فيها مذهب أبي حنيفة ومذهب مالك في أواخر القرن الثاني وأوائل القرن الثالث للهجرة.

أما سبب انتشار المذهب الحنفي فإن أبا يوسف صاحب أبي حنيفة قاضي الرشيد كان يولي أصحابه والمنتسبين إليه –وهم حنفية- القضاء ببلاد العراق وخراسان والشام ومصر، إلى أقصى عمل إفريقية، ففشا مذهبهم في هذه البلاد فشواً عظيماً.

وأما المذهب المالكي فسبب انتشاره أن رحلة أهل شمال إفريقية كانت غالباً إلى الحجاز وهو منتهى سفرهم، والمدينة يومئذ دار العلم، وأهلها يؤمئذ شيخهم وإمامهم مالك وشيوخه من قبله وتلاميذه من بعده، فيأخذ الإفريقيون عنهم العلم، ويرجعون إلى ديارهم فينشرون مذهبه. وكانت الأغلبية – مع ذلك- للمذهب الحنفي.

استمر الحال هكذا إلى أن تولى المعز بن باديس أوائل القرن الخامس، فحمل أهل إفريقية وما والاها من بلاد المغرب على المذهب المالكي، حسماً لمادة الخلاف في المذهب، ورغبة في توحيد القضاء، فاستمرت له الغلبة عليها وعلى سائر بلاد المغرب إلى اليوم.[٤]

ثم انتعش المذهب الحنفي في أيام الحكومة العثمانية بالجزائر لأنه مذهب الولاة الأتراك، وقاسم المذهب المالكي في القضاء والفتوى والتدريس بالمدن الكبرى، ثم اضمحل بذهاب أهله، ولم تبق إلا أقليه منتمية إليه ، مع جريان العمل في عدة أحكام بمقتضى أصله.

هذا وقد أزهر القطر الجزائري بالعلم في أدوار من تاريخه، وأنجب في الفقه الإسلامي على مذهب مالك أئمة من بجاية وتلمسان وغيرهما، كانوا مناراً يبعث أشعته على القطر الجزائري وعلى شقيقيه: تونس ومراكش، ومرجعاً معتمداً في الفتوى والقضاء. وبقي فيه إلى عهد قريب علماء فقهاء متوسعون، رحل كثير منهم إلى تونس قبل نصب الحماية عليها، ولا تزال أسماؤهم معروفة في جامع الزيتونة المعمور.

قسنطينة (الجزائر) الشهاب

كيف ابتدأت الدعوة إلى الإسلام؟

تاريخ الدعوة إلى الإسلام مملوء بالعبر والعظات، وضروب الهداية، وأنواع الرشد، يجد المطلع عليه والباحث فيه آثاراً تهديه إلى أن نظام الدعوة الإسلامية كان أدق نظاماً عرف بين أنظمة الدعوات الصادقة.

لم تكن الدعوة الإسلامية دعوة سياسية يستحل دعاتها فيها الكذب والرياء والنفاق والغش والخديعة والمواربة واستغواء العواطف واستمالة الأهواء، بل كانت دعوة إلى الحق. كانت حقاً في ذاتها وفيما تدعو إليه وفي طريق الدعوة.

لم يستعمل صاحب الدعوة صلوات ا عليه أي وجه من وجوه الحيلة، ولم يلجأ لأي ضرب من ضروب المكر، لا فيما يدعو إليه ولا في كيفية الدعوة «هو الذي أرسلَ رسولَه بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى با شهيداً»، «ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن). فوسائط الدعوة هي:

الحكمة

والموعظة الحسنة

والمجادلة بالتي هي أحسن

هذه هي طرق الدعوة إلى سبيل ا ، وسبيل ا هو الإسلام، والإسلام حق واضح، وكيفية الدعوة إليه من الحق الواضح كذلك. وليس المراد من الجدل الإسلامي هو ما تواضع عليه المنطق بل المراد به إقامة الحجة القاطعة المقنعة، لا مغالبة الخصم بحق أو بباطل.

وإذاً فالدعوة إلى الإسلام كانت تعتمد على الموعظة والتذكير، وكانت تعتمد أيضاً على الإصابة والحكمة أي على البرهان الواضح، وعلى المجادلة أي إيراد الحجج الصادقة «قل هذه سبيلي أدعو إلى ا على بصيرة أنا ومن اتبعني».

ابتداء الدعوة إلى الإسلام

ابتدأت الدعوة إلى الإسلام منذ نزل قوله تعالى: «يا أيها المدثر. قم فأنذر»، فدعا صلى ا عليه وسلم إلى دينه في مكة دعوة سرية: كان يلقى الرجل، فيخلو به، ثم يعرض عليه التعاليم الإسلامية. وقد مكث يدعو على تلك الصفة ثلاث سنين أسلم فيها تسعة وثلاثون رجلاً إلى أن نزل قوله تعالى: «فاصدع بما تُؤمر» فجهر بدعوته، وهنا دخلت الدعوة في طور جديد وكان بدء الاضطهاد للدعوة الإسلامية.

كانت قريش شديدة التمسك بدينها، وكان فيها لدد وخصومة إذا مست عقائدها الدينية، فكان مركز الداعي إلى تغيير عقائد قريش الدينية في نهاية الدقة وغاية الحرج، لأنه

---

[٤] اعتمدتُ على كلام ابن خلدون وابن فرحون وابن الأثر والمقريزي وابن خلكان وغيرهم. ولم اذكر المذهب الاباضي لأن إخواننا المتمسكين يرون وطنهم (ميزابه) ليس من القطر الجزائري، وإلا فقِدَم مذهبهم فيهم ورسوخهم فيه وملاءمته لهم وحاجتهم إلى تطبيقه عليه لا تنقص شيئاً عن غيره من مذاهب المسلمين.

يدعو قوماً رسخت فيهم العقائد الجاهلية، وكانوا يدعون فوق ذلك أنهم حماة تلك العقائد وحفَظتها من دون العرب.

وإذاً، فإسلام تسعة وثلاثين رجلاً في مدة ثلاث سنين –والدعوة سرية، وصاحبها وحيد فريد، والمدعوون أولو بأس شديد وصلابة في الدين قد بلغت أقصى حدودها- دليل واضح على أن الدعوة قد نجحت، وأن الداعي موفق في وسائط الدعوة، وأن الطريق التي استعملهافي دعوته جديرة بالاحترام والتقدير.

وممن أسلم في تلك المدة أبو بكر وعلي، ومن يدرك موقف أبي بكر يوم ارتدت العرب وموقفه في نصرة النبي وتجهيزه الجيوش للفتوح وحرصه على أن تدين العرب بالإسلام كاملاً غير منقوص، يدرك أن الرجال الذين أسلموا في تلك المدة كانوا دعائم الإسلام وأركان عظمته.

وكان لعلي مواقف في الغزوات محمودة، ومواقف في العمل على توحيد المسلمين وعلى إقامة النظم الإسلامية كاملة دون ميل إلى ما تقضي به أساليب السياسة الخادعة.

وممن أسلم في تلك المدة عثمان بن عفان الخليفة الثالث وصاحب المقام المحمود في نصرة النبي، والزبير بن العوام الفارس المشهور وصاحب البلاء المحمود في الغزوات الإسلامية، وعبد الرحمن بن عوف الصحابي الجليل، وسعد بن أبي وقاص صاحب الموقف المعروف في غزوة أحد ومزيل دولة الأكاسرة من بلاد الفرس ومن على يديه كان فتح الدولة الفارسية، وطلحة بن عبيد ا التيمي الذي وقى رسولَ ا يوم أحد وكان ذا أثر مشهور في ذلك اليوم، وله في الغزوات آثار جليلة ومآثر واضحة، وسعيد بن زيد أحد العشرة المبشرين بالجنة، وعبد ا بن مسعود الهذلي بحر من بحور العلم وعلم من أعلام الفتيا، وخالد بن سعيد بن العاص، وكان من الفرسان المعدودين.

إن نظرة واحدة في تاريخ هؤلاء الرجال وفي نفسيتهم تدل دلالة واضحة على أن عقولهم الكبيرة ونفوسهم العظيمة لم تقبل على الإسلام ولم تبع أرواحها في سبيل نصرته إلا بعد أن أطالت التفكير في تعاليمه، وأمعنت النظر في دعوته، حتى تبين لها أنه الحق فمالت إليه وآمنت به، وآزرته ونصرته وضحت بنفوسها في سبيل نشره وإذاعته.

إن الرسول الأعظم عرف كيف يدعو حينما اختار هؤلاء الرجال ليكونوا عنوان دعوته ورافعي أعلام دينه.

كان نظرهصائباً وفراسته رشيدة حين وقع اختياره على رجال أظهرت التجارب أنهم لم يبخلوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل إعلاء كلمة الدعوة وحماية صاحبها ودفع الأذى عنه، وما عرف التاريخ قوماً قاموا بنصرة الدعوة التي دعوا إليها حق القيام كهؤلاء الذين دعاهم النبي في تلك المدة يوم كانت الدعوة خفية.

جهر النبي بالدعوة فاضطهدته قريش، وحينما اضطهدته لم تجده فريداً، بل وجدت لدعوته أنصاراً، ولدينه حماة، وهم الذين أسلموا حينما كانت الدعوة سرية.

من هنا تدرك سر تأخر الأمر بالجهر بالدعوة ثلاث سنين عن الأمر بابتداء الدعوة : حقاً إنها لحكمة ظاهرة، فلقد أخذ النبي صلى ا عليه وسلم يدعو سراً وهو في أمن من الاضطهاد فسنحت له فرصة واسعة لاختيار من يوجه إليه الدعوة، فاختار رجالاً صدقت فيهم فراسته، فكانوا السابقين الأولين. أدركوا المشاهد، ونصروه في السلم والحرب، ونشروا دين ا في الخافقين، واحتملوا الأذى في سبيل الذود عن معتقدهم والدفاع عن دينهم. لم يبالوا بكثرة العدد، ولم ينثنوا أما تألب الدهر، وتتابع الخطوب، بل كانوا كما يقول ا فيهم: «من المؤمنين رجالٌ صدقوا ما عاهدوا ا عليه، فمنهم من قضى نحبه ومنهم ينتظر وما بدلوا تبديلاً».

إن نجاح أية دعوة تحتاج إلى مهارة في الدعوة وإخلاص في الدعاية، وصدق نظر في اختيار المدعو، وإصابة الفراسة في توجيه الدعوة، وكل ذلك قد توفر في ابتداء الدعوة إلى الإسلام، لذلك كان النجاح باهراً ومدهشاً.

إن لنا في رسول ا أسوة حسنة، فقد قال تعالى: «لقد كان لكم في رسول ا أسوة حسنة» فإذا أردنا الدعوة إلى الإسلام أو إلى إحياء سننه وبعث معالمه وحدوده وإقامة شرائعه فأمامنا الطريق واضحة والصراط مستقيم: علينا أن ندرس تاريخ الدعوة درساً تفصيلياً مستقصى وأن نتبع ما يهدي إليه الدرس، فنختار الدعاة ونختار المدعوين، في فرصة هادئة مطمئنة، فإذا خفنا الاضطهاد وتوقعناه جاز لنا أن نجعل الدعوة بمأمن من الاضطهاد، وساغ لنا أن ننزل على حكم الظروف، وأن نقدر روح الوقت، فإن كان صالحاً للظهور بالدعوة وكانت الدعوة في أمن من الاضطهاد صح الجهر بها، وإن كانت الظروف تقضي بتكوين دعاة في السر وانتهاز الفرص لإعلان الدعوة وجب النزول على ما تقضي به روح الوقت وظروف المسألة، فلا بد إذن من الحكمة وتقدير الظروف ومراعاة المناسبات الوقتية.

لم تكن دعوة النبي صلى ا عليه وسلم دعوة سرية يخفيها كما يخفي دعاة الفوضى

وأنصار الثورة خططهم وتعاليمهم، وإنما كانت دعوة إلى الحق وفي سبيل الحق، دعوة ظاهرة واضحة، ليلها كنهارها، يراد بها إرجاع الإنسان إلى فطرته التي فطر ا ُ الناس عليها. فهي إصلاح للبشرية، وهداية للإنسانية: تقبلها العقول وتطمئن بها القلوب وتنشرح لها الصدور.

نظام يضمن لمعتنقيه تقرير مصيرهم في الدنيا، وتقرير مصيرهم في الآخرة، ولم تلبث العقول حين رأته أن آمنت به ورضيته ديناً.

الإسلام في ذاته حق، ولو كان الحق يصل إلى أذهان الناس بدون دعوة وبدون دعاة لكان الإسلام أغنى الأديان عن الدعوة وأجدرها بالوصول إلى النفس بدون دعاية، ولكن سنن الوجود قضت بألا غنى للحق من الدعوة إليه، وأن لا بد لنجاح الدعوة من مهارة وحذق وصدق فراسة في اختيار المدعوين في ابتداء الدعوة، ومن قوة تحمي الدعوة حينما يبلغ الاضطهاد غايته، وتعجز النفس البشرية عن احتماله، ويخشى على الدعوة من طغيانه. كذلك كان شأن الإسلام في مبدأ دعوته وحينما وصل الاضطهاد له غايتَه.

عبد الباقي سرور نعيم

- -

مسجد في أثينا

وردتْ برقية من أثينا إلى شركة روتر بأنه استقر القرار على إنشاء جامع في أثينا للمسلمين، ولا سيما مسلمي مصر الذين يزورون اليونان وهم ذاهبون للاستجمام في لوتراكي بقرب كورنتس أو لأعمال أخرى، وهذه خطة جديدة لأن جميع الجوامع التركية القديمة زالت تقريباً من اليونان.

- -

بين حكومتين إسلاميتين

أعلنت حكومة إيران عن رغبتها رسمياً في الاعتراف بحكومة العراق. وقد تم الاتفاق على تأليف وفود مهمة من الأمتين تتزاور لتبادل العواطف الودية.